مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ التَّغَابُن

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة التغابن

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة التغابن

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾

افتتح الله سبحانه وتعالى سورة التغابن بالإخبار عن تنزيه جميع المخلوقات لربها تبارك وتعالى عن كل ما لا يليق بعظمته وجلاله، وذلك بالتسبيح والتعظيم له عَزَّ في علاه. فقال عَزَّ شأنه ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ انطلقت سورة التغابن بمثل ما ابتدأت به سورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، وسورة الجمعة بإظهار وبيان تنزيه مخلوقات الله تبارك وتعالى لربها جَلَّ جلاله عن كل ما لا يليق بعظمته وجلاله عَزَّ في علاه. إلا أن التسبيح في سورة الجمعة وسورة التغابن ورد بصيغة المضارع المستمر، بينما في سورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، ورد بصيغة الماضي ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ولعل من فائدة هذا التغاير هو لبيان أن تسبيح مخلوقاته عَزَّ وجل كائن منها فيما هو ماض منذ خلق السماوات والأرض، ومستمر لا ينقطع ولن ينقطع. وكذلك لإفادة التأكيد بهذا التغاير، فالفعل الماضي يؤكد ويُكمِّل الفعل المضارع، والفعل المضارع يؤكد ويُكمِّل الفعل الماضي. فتسبيحهم كائن لا ينقطع منذ أن خلق السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

فقال تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ أي: سبح ويسبح بالذكر والتنزيه والانقياد لله رب العالمين جميع من في السماوات والأرض ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ليشمل ذلك جميع المخاليق، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع وعلا من مخلوقاته. وكذلك ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: الأرض وما خُلِق عليها وفيها، من الإنس والجن والدواب، والحيوانات، وما حوته من بحار ومحيطات وأنهار، وما بداخلها من أنواع الحوت والأسماك

والأصداف. فلا شيء إلا وهو يسبح لله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من الملائكة والأناسي، والجان، والحيوان، حتى الجماد[١] وبهذا يشمل الكافر من الجان والناس، لأن دلالة التسبيح تشمل حتى الخضوع والانقياد، فمن كفر من الجن والإنس، فهوا خاضع ذليل لله تعالى. ولذلك قال أهل العلم: أن من دلالات تسبيح الجمادات خضوعها لله تعالى[٢] وهذا من غزارة المعنى الذي أفاد قوة وقهر الله تعالى لكل شيء. فشمل التسبيح الخضوع والخنوع، بأنه تحت قبضة الله تعالى، كما هو التنزيه له عَزَّ وجل عن كل ما لا يليق به وبعظمته تبارك وتعالى.

وقد ذكر عَزَّ وجل في سورة الإسراء ما يبين تفاوت التسبيح بين المخلوقات، فكل له تسبيحه المناسب له، وأن كل شيء يسبح له عَزَّ وجل، ولكن لا يدرك الإنسان فهم تسبيح مخلوقاته جَلَّ شأنه، حيث قال تبارك وتعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ فالسماوات السبع، والأرض تسبح وتنزه الله تعالى، بل وكل من في السماوات والأرض يسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً. وهو يجمع التسبيح بالتنزيه، والحمد والثناء الذي يتناسب مع حال وهيئة تلك المخلوقات، وتسخير الله تعالى لها. ولكنكم أيها الناس لا تفقهون وتفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قَصُرَ علمه عنه، فيما ليس له به حق. وهذ الإخبار من الله تعالى عن عظيم ملكه، وطاعة خلقه له، ما يفيد ويقرر بأنكم أيها المشركون تُقَدِّمُون الطاعة لغيره عَزَّ وجل، ممن تزعمون زوراً وبهتاناً أنهم شركاء، فليس له شريك في ملكه، وكل شيء هو ملكه عَزَّ وجل، ويسبح وينقاد له. وبالتالي فإن خلائقه جميعاً طائعة له تبارك وتعالى، وزيادة عن الطاعة تسبح وتنزه الله رب العالمين عن كل نقص.

وقد خص سبحانه وتعالى أهل الأرض باسم موصول ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لبيان وإظهار التخصيص لهم باعتبار ما تناولته وتضمنته هذه السورة من معالجات وكشف لشأن أحوال أهل الأرض. بينما في سورة الحديد، وسورة الحشر، وسورة الصف، وردت بدون الاسم الموصول ﴿ وَمَا ﴾ قال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وذلك لإيراد الشمول من غير تخصيص. وفي سورة الجمعة، وسورة التغابن ورد العموم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٠٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٩-٣٠)

مع التخصيص. مما يدل على دقة وعظمة البيان، وقوة توافقه مع مقاصده، ليظهر الإعجاز البياني كما هو الإعجاز في خلقه وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم أعقب ذلك البيان إظهار كمال عظمة ملكه وقدرته وعزته سبحانه وتعالى، والتي استوجبت تسبيحه من جميع خلقه عَزَّ في علاه. فقال تعالى ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال الملك ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الذي له كمال وتمام الملك للكون كله، فهو سبحانه وتعالى الذي خلق جمع أصناف المملوكات، وأنها تحت سلطانه وكمال إرادته، ولا يخرج شيء من ملكه عن سلطانه وإرادته. مما يعلم العباد أنهم وما يملكون هم مُلك لله تعالى، وأنه هو الذي مكنهم مما يملكون، ولو شاء لنزع منهم ما يشاء مما يملكون. فعليهم أن يذعنوا لربهم، ويطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتبعوه. وليفيد التخصيص والحصر والقصر بأن كمال الملك الحقيقي هو لله تعالى، وأن مُلْكَ غيره من خلقه بتفويض وعطاء منه سبحانه. إذ ينزع الملك ممن يشاء، ويهب الملك لمن يشاء. كما في سورة آل عمران ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ فإن مُلك العباد هو تمليك مقيد بمشيئة الله تعالى، فهو تمكين من الخالق للمخلوق، سواء كان إعطاءً أو انتزاعاً. ليعلم المخلوق أن الذي يُعطي ويُغنى هو الله سبحانه وتعالى. وفي هذا تربية للنفس البشرية، بالإذعان لمالك الملك. وكذلك عدم منازعة من أعطاه الله تعالى الملك لأي شيء من الأملاك، وألا يحسده، لأن الذي مكنه هو مالك الملك سبحانه وتعالى. وأن على من أكرمه الله تعالى بشيء من الأملاك ألا يبطر ولا يتجبر، فإن الله عَزَّ في علاه هو الذي أعطاه ومَكَّنَهُ.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن الحمد والشكر المطلق له لا لغيره جَلَّ في علاه، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فإن لربكم الحمد والشكر العظيم ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فلربكم الحمد الذي هو الشكر والثناء، لفظاً واعتقاداً، وعملاً بالدين. وقد أعطى وأفاد السياق البياني التخصيص والحصر والقصر؛ بأن الشكر الحقيقي هو لله تعالى. فإن الحمد له على إنعامه المتواصل، وهدايته وتوفيقه ورحمته، وإن الله تعالى يحمده أهل السماوات وأهل الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحمده أهل السماوات وأهل الأرض ويصلون له[١] بل إن الحمد له عَزَّ وجل في عموم الكون. مما يفيد أن عليكم المداومة على شكر وحمد ربكم، والاقتداء بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى، بكثرة الحمد والشكر.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٦/٦)

ثم يرتقي البيان بالإخبار والإعلام عن كمال القدرة الربانية على كل شيء يريده عَزَّ في علاه. فقال تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ومن ذلك أرزاقهم، ونصرهم وتمكينهم في كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم وتمكينكم، وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفته سبحانه وتعالى.

وقد أورد تبارك وتعالى كمال القدرة له عَزَّ وجل بصيغة المبالغة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان باسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ لإفادة: الحصر والقصر على أن ليس لأحد هذه القدرة المطلقة إلا هو العزيز الرحيم، بل إنها الله تعالى حصراً وقصراً فقط. وأن الأمر والشأن ممتد لكل شيء، وفي كل زمن، وفي كل مكان، فهي تعطي معنى كمال القدرة على كل شيء، مع اتصال الزمن من غير انقطاع لكمال قدرته تبارك وتعالى، ولتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التي لا تنقطع ولا تتوقف، لا سابقاً ولاحقاً.

فبعد أن أظهر جَلَّ جلاله عظمته، وقدسيته، وكمال الملك والتدبير والسلطان، ينتقل تبارك وتعالى بالْمُخَاطَبين إلى إنشائهم وخلقهم، وشأن إيمانهم وكفرهم، وكمال علمه جَلَّ في علاه بهم وبكل شيء. فقال عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فربكم هو الذي خلقكم، وليس لغيره الخلق والإنشاء ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ فربكم هو وحده الذي خلقكم، فليس هناك خالق غيره لكم، وبالتالي كيف تتجهون لغيره من المخلوقات وتذرون خالقكم. فإن واجبكم هو الطاعة والإذعان والشكر له على وجودكم. فبدأ البيان لهم من أصل المعرفة، وهو الخلق، لينتقل بهم بعد ذلك إلى افتراقهم في الإيمان والطاعة وفي الكفر. وهذا من دقائق الإعلام والتفهيم، بأن يبدأ تعليم الجاهل من أصل المعرفة، ثم الترقي معه وبه إلى ما هو أعلى.

ثم تدرج البيان بالْمُخَاطَبين إلى ما هم عليه الناس من الإيمان والكفر. فقال تعالى ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ فبالرغم من خلق ربكم لكم، إلا أنكم مختلفون ومتباينون في الطاعة والامتثال، إلى درجة أن منكم كافر بربه، ومنكم مؤمن طائع لربه عَزَّ وجل. فأحوال العباد كائنة في هذين القسمين. وقد أفاد حرف الفاء في قوله تعالى ﴿ فَمِنكُمْ ﴾ العطف على جملة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ قال ابن عاشور عن هذا العطف:

والفاء في ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ عاطفة على جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وليست عاطفة على فعل ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وهي للتفريع في الوقوع دون تسبب[١] وبالتالي فإن انقسام الناس إلى مؤمن وكافر هو بسبب اختيارهم. خاصة وأن الله تعالى خلق العباد لعبادته كما قال عَزَّ وجل في سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فإن الغاية من خلق الجن والإنس، وبعث الرسل إليهم، وإنزال الكتب معهم هو لمقصد واحد فقط، وهو عبادة ربهم وحده لا شريك له، وفق ما أمر وشرع. فلم يخلقهم إذاً لغاية وهدف الكفر، وإنما خلقهم لعبادته سبحانه وتعالى. والله تعالى عالم بما سيكون عليه العباد قبل أن يكونوا عليه.

وجعل الله تعالى لعباده مشيئة الاختيار، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار. وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، كما قال تعالى في سورة التكوير أيضاً ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بمشيئته، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، حتى يعلموا أنهم محاسبون على ما يكون منهم، لأنه باختيارهم، ويعلمون كذلك ما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته وسلطانه، فلو شاء لأرغمهم على ما يريد. وبهذا يصحح سبحانه وتعالى أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وأما في سورة الشمس، فقال تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ فَعَرَّفَهَا وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها.

وذكر سبحانه وتعالى في سورة فصلت أن قوم ثمود استحبوا العمى، وهو الكفر، وذلك باختيارهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ وأما ثمود، الذين هم قوم نبي الله صالح عليه السلام، فقد أوضحنا لهم سبيل الحق، وطريق الرشاد الذي جاءهم به نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فآثروا واختاروا ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ المضاد للهدى، أي: الذي هو الكفر، فاختاروه بأنفسهم ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فالاختيار للإنسان.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٥٥/١١)

فإن الله تعالى لا يظلم العباد بأن يختار لهم الكفر، كما قال عَزَّ وجل في سورة فصلت ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فنزه عَزَّ وجل نفسه عن الظلم، حتى في قضائه وميزانه، فإنه قائم على العدل، فلن يظلم ربكم أحداً من العباد، فلن يزيد سيئة أو يُنقص حسنة، بل يُوَفِّي كل نفس بما كسبت. فلن يعاقب أحداً إلا بذنبه الذي اكتسبه. مما يفيد أن عمل العباد هو مناط الحكم. ولكن لعلم الله تعالى المسبق بما سيكون عليه العبد أخبر عليه الصلاة والسلام بسبق الكتاب. فقال صلى الله عليه وسلم (وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيغلب عليه الكتاب الذي سبق، فيختم له بعمل أهل النار. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيغلب عليه الكتاب الذي سبق، فيختم له بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة)[1] وذلك لعلم الله تعالى بما سيكون من العباد قبل أن يكون. والكتاب سابق لهم، لسبق علم الله عَزَّ وجل، العليم الحكيم.

ولذلك استنبط منها علماء التفسير أحوال الناس في الكفر والإيمان. وذلك لسعة دلالة البيان الذي استوعب هذه الدلائل التي تستوفي تنوع أحوال الناس في الكفر والإيمان: فأحدها: فمنكم كافر يؤمن، ومنكم مؤمن يكفر. قاله أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: فمنكم كافر في حياته، مؤمن في العاقبة. ومنكم مؤمن في حياته، كافر في العاقبة. قاله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه. والثالث: فمنكم كافر بالله، مؤمن بالكواكب. ومنكم مؤمن بالله، كافر بالكواكب. قاله عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى[2] بما يفيد تقلب الناس أيضاً في الكفر والإيمان. وأما في تقديم الكافر على المؤمن فذلك باعتبار الكثرة. فأكثر الناس هم الكافرون.

ثم في ختام الآية الكريمة يؤكد تبارك وتعالى كمال علمه بالعباد. فيقول جَلَّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فربكم بصير بما يكون من أعمالكم التي تقومون بها. والبصير هو الذي يرى كل شيء، فلا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم ولغاتهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس، وحاجاتهم، فيعطي ويجازي كل أحد بما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير من مخالفة شريعة الله تعالى، وتحضيض على الطاعة، فإن الله تعالى يعلم ما يكون منكم فيثيبكم، مهما كان الشأن قليلاً أو كثيراً. وهو تهديد لمن يسلكون ويخوضون في الباطل، فإنه سبحانه وتعالى يسمع ويبصر كل شيء، فلا يعزب عن علمه تبارك وتعالى مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك، بل إنه محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً. مما يقوي عزيمة المؤمنين أمام الباطل، وأمام أعدائهم، وأمام مكائدهم. فيعلمون أنه لا يخفى عليه عَزَّ وجل شيء من أعمالهم، وأعمال ونوايا غيرهم. فيقوى بذلك التوكل عند المؤمن، وتقوى

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٢٠٨) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٦٤٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٣٣)

الشجاعة القلبية في كل شأن، سواء تجاه بذل المعروف والإحسان، والإقدام عليه، أو فيما يتعلق بمواجهة الباطل بجميع أنواعه وأحواله. فهي قوة من كل وجه للمؤمنين، وتحذير لغيرهم من ربهم سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل السياق الكريم والبيان العظيم من الله العزيز العليم إلى إظهار عظيم تدبيره وقدرته بما خلق.

فيقول تبارك وتعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يوضح البيان الرباني دلائل الألوهية والربوبية، بأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وبالتالي هو المالك وهو المهيمن على ما خلق، وليس له شريك في ملكه أبداً، بل الجميع خلقه وعبيده.

وقد أعطت وأفادت دلالة ﴿ خَلَقَ ﴾ الإنشاء والإيجاد، والإبداع بما ليس له مثيل، فالخلق إنشاء من العدم، من غير سابق لمثله. فيقرر الله تعالى للعباد أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فنسب الخلق له، تنبيهاً وتذكيراً للعباد، ليتحقق به الاستدلال، وتصحيح الأفكار والاعتقاد، والحسبان الخاطئ. وبالتالي فإن كل موجود هو من خلق الله تعالى، وبالتالي كيف تعبدون مخلوقاً، وتجعلونه شريكاً للخالق. بل ومن دقائق البيان والإيضاح لعظمته جَلَّ جلاله أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو ضد العبث، فإن الله تعالى إنما خلق ويخلق لحكمة وغاية، ومقصدٍ وقصد حكيم، فإنه عَزّ وجل مُنَزَّه عن العبث. وهو كمال الحق وتمامه، وامتناع أن يلج إليه الباطل في غايته وأهدافه، أو يتسلل إليه شيء من ذلك، بما يفيد ليس للعبث مكاناً فيما خلق وما يخلق ويدبر سبحانه وتعالى.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أنه مخترعها ومبدعها، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وقد شمل خلق السماوات كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت الأرض كل ما هو عليها أو خارج على سطحها، أو في داخلها وباطنها. بما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، بما يدل على أن كل شيء عبد له سبحانه وتعالى، وتحت مشيئته وسلطانه وقهره، وأنه عَزَّ وجل هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وقد شملت دلالة ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ العالم العلوي، وشملت ﴿ وَٱلْأَرْضَ ﴾ العالم السفلي، فجمعت دلالة الكلمتان، أو الاسمان جميع الخلائق، فأغنتنا عن التفصيل، والتعداد، وهي غاية في الإعجاز البياني. ومن غزارة وقوة المعالجة أن الله تعالى لفت انتباه العباد عامة، والمشركين والكافرين خاصة إلى خلق الكون كله في كلمتين: ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ والتي يدل خلقها على عظمة خالقها، وقوته، ووحدانية ربكم عَزَّ وجل.

ثم بعد بيان خلقه سبحانه وتعالى للسماوات والأرض، والتي شملت كل مخلوق، يتدرج البيان بعد ذلك إلى التخصيص، بتعيين خلق الْمُخَاطَبين جميعاً في أحسن هيئة وصورة وطبيعة. فقال تعالى ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ وإن من دلائل قدرته، وعظيم إنعامه عليكم أيها الناس أن ربكم صوركم ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ ﴾ أي: أنشأ أشكالكم وهيئتكم بخلقكم وإيجادكم من العدم ﴿ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ فجعل خلقكم في أحسن وأجمل صورة. فلو تأمل الإنسان في خلقته وفي باقي المخلوقات من الحيوانات والدواب لوجد أنه أحسنها وأجملها من كل وجه، بل وأفضلها عقلاً وحركة، وصورة، وقدرة، ونطقاً، وغير ذلك. بل سخر غيره له من الحيوانات والدواب، وذَلَّلَ له الأرض، وأقدره على استخراج ما فيها من الخير. فإذا تَدَبَّر الإنسانُ ذلك أدرك عظيم نعمة الله تعالى عليه، بما يستوجب منه الشكر لربه، بتوحيده، وإفراده بالعبادة على الوجه والمنهج الذي أنزله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن مصير الإنسان بعد الموت، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فإلى ربكم مرجعكم جميعاً يوم القيامة، للحساب والجزاء. وفي هذا البيان مدعاة للعباد نحو التأمل والتفكر في العاقبة. وهو أسلوب يبعث في النفس التفكر والتعقل من خلال منهجية التسلسل البياني لعظيم خلق الله تعالى، وكمال قدرته، وجليل إحسانه للعباد، وعظيم سلطانه، ثم العودة للحساب والجزاء، بما يثير عند العقلاء العودة للحقائق بالتفكر والتأمل، واغتنام فرصة الحياة للاهتداء والطاعة لربهم سبحانه وتعالى، وفق المنهج الذي جاء به رسوله الكريم؛ محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتوجه البيان إلى إظهار المزيد من مظاهر عظمته تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فإن من كمال علم ربكم أنه يعلم بكل شيء مما في السماوات والأرض ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فلا يغيب عنه شيء عَزَّ وجل مع سعة السماوات وكثرة ما فيها، وما يعرج إليها، وما ينزل منها. وكذلك علمه الدقيق بما في الأرض. حيث عطف سبحانه الأرض على السماوات ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيعلم بكل ما فيها وعليها، وما بداخلها وما يحدث فيها، مما هو على ظهرها، أو في باطنها، وما يكون في جوف البحار، وما هو على سطحها. فلا يختلف دقة علمه عن شيء دون شيء. فكيف لا يعلم بحقائقكم، وأعمالكم، وبما في قلوبكم وضمائركم وسرائركم من الحقائق التي لا تخفى عليه سبحانه وتعالى. فلا يحتاج ربكم جَلَّ في علاه إلى من يخبره عنكم.

ثم بعد بيان كمال علمه جَلَّ جلاله بما في السماوات والأرض يخصهم سبحانه وتعالى بعلمه، فقد أفردهم بذلك، للتنبيه ولترهيب وإيجاد الخوف منه عَزَّ في علاه، فقال تعالى ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ فإن من عظمة وعظيم علمه ودقته أنه عَزَّ في علاه يعلم السرائر، وما تُخفي الصدور. فإن الله تعالى يعلم منكم ما تُضمرونه وتُخفونه في أنفسكم، فتُسِرُّون به بالإخفاء والتكتم عليه، وكذلك يعلم ما تُظهرونه وتعلنون به، فإنهما أمران وحالتان متساويتان في علم الله تعالى، فلا يخفى منكم عنه شيء، فإن الإخفاء منكم عنده عَزَّ وجل علانية. وقد دلت الآيات والحجج والبراهين السابقة على علمه الشامل تبارك وتعالى، فالذي أنشأ الكون من العدم، وخلق تفاصيل الإنسان الظاهرة والباطنة، فإنه لا يخفى عليه من شأن هذا الإنسان شيء أبداً. فسبحان الله العليم العظيم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

فإن من كمال علمه عَزَّ وجل أنه يعلم كل شيء مما في السماوات والأرض، فلا يغيب عنه شيء عَزَّ وجل، مع سعة السماوات والأرض وكثرة ما فيها. فكيف لا يعلم بما في قلوبكم من الحقائق التي لا تخفى عليه سبحانه وتعالى. فلا يحتاج ربكم جَلَّ في علاه أن تخبروه عنكم. وقد بين لكم خطأ فهمكم للإيمان الذي لا يكشفه غيره سبحانه وتعالى. فأخبركم بما في قلوبكم التي لم توافق قولكم.

ثم يعزز سبحانه وتعالى علمه بما يسرون ويعلنون بما هو أدق من ذلك. فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإن ربكم عليم بما في صدور العباد، مما يتكتمون عليه، بإضماره في خواطرهم وقلوبهم، ولا يفصحون عنه، ولا يُظهرونه لغيره، فإن الله عَزَّ وجل يعلم ما يتخفى به الإنسان ولا ينطق به ولا يظهره لغيره. فيعلم الكاذب من الصادق، والمنافق والمدلس، والحاقد، والحاسد، والمستكبر، والكاذب، والصادق، فلا يخفى عليه منكم شيء أبداً. وفي هذا ترهيب وتطمين. فهو ترهيب للمكذبين والمنافقين بأن الله تعالى مُطَّلع على قلوبكم فيعرف ما أنتم عليه من الكذب والنفاق. وفي نفس الوقت هو تطمين لأهل الإيمان من أن الله تعالى مُطَّلع على ما في قلوبكم، فتعاملوا مع ربكم وفق ذلك، واعلموا أنه لا يضركم افتراء المفترين عليكم، فهو يعلم ما يضمرونه لكم، فيعرف كيف يجعل الدائرة عليهم. فتعاملوا مع ربكم سبحانه وتعالى بما يعلم منكم، وليس بما يقول الأعداء عنكم. وهو تثبيت لكل مؤمن ما بقيت الحياة الدنيا.

وقد أفاد هذا البيان المبالغة في العلم إلى أقصاه ومنتهاه، فيعلم ما يغيب في السماوات والأرض، حتى ما تكنه القلوب، وما يختلج وتتحفظ عليه الصدور. فربكم ﴿الله﴾ لا غيره ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وورد ﴿عَلِيمُۢ﴾ بصيغة المبالغة، ليفيد غزارة ودقة العلم، وامتداده وإحاطته لكل شيء، مع قوة التحذير من الاشتغال بالشر. وهو تدرج حكيم في البيان. مع الترابط الدقيق بين دلائل الآية الكريمة التي تأخذ الْمُخَاطَب بالتفكير والتأمل إلى ما يصحح به فكره ومفاهيمه. فهو بيان عظيم عن علم الله تعالى العميق والعظيم.

﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ ﴾

بعد استعراض تسبيح مخلوقات الله تعالى لربها عَزَّ وجل، ثم تخصيص الْمُخَاطَبين بخلق الله تعالى لهم، ثم تعميم خلقه للكون كله، ثم إعادة التخصيص للإنسان بأن ربهم خلقهم في أحسن وأجمل وأكمل هيئة، وأنه عَزَّ وجل يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يسرون وما يجهرون به العباد. وبعد كل ذلك الإظهار والبيان لعظمته عَزَّ وجل، والامتنان العظيم بهذا العلم من الخلق والتدبير يتوجه الخطاب بموعظة عظيمة، تستوجب منهم التأمل في حال الأمم السابقة التي كفرت بما جاءهم من الحق فنالهم العقاب بالعذاب الأليم. فقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ ألم يصل إلى أسماعكم أخبار الأمم الماضية التي كفرت، كقوم نوح وعاد وثمود؟ وهو سؤال استفهام، يقرر به عَزَّ وجل أنه قد وصل إليكم أخبار تلك الأمم التي ذاقت الهلاك والدمار بسبب كفرها بالمرسلين. وهو سؤال استفهام يحمل دلالة الاستنكار على من بَعَثَ اللهُ تعالى فيهم رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. فلم يتعظوا بما بلغهم من أخبار تلك الأمم السابقة، فيقرر عليهم سبحانه وتعالى أنه قد حصل لكم العلم بأنباء وأخبار تلك الأمم السابقة لكم، فلم تعتبروا بها. فكيف لا تتعظون مما حصل لهم من الهلاك بعد تكذيبهم للمرسلين من الله تعالى إليهم؟

فهو سؤال استنكار على ما تقرر عندهم من أحوال الأمم السابقة التي كفرت وكذبت بالمرسلين إليهم.

فعاقبهم الله تعالى بالهلاك ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فحالكم أيها المكذبون بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كحال المكذبين من قبل. وبالتالي هل تريدون أن يلحقكم العذاب من ربكم كما لحق الذين من قبل؟ سؤال يبعث فيهم استشعار أهمية الاتعاظ، ويحثهم على التفكر والتأمل. ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ ﴾ ألم يصل إليكم ﴿ نَبَؤُاْ ﴾ يعني الشأن العظيم، من أخبار ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ ﴾ أي: الذين كفروا فيما مضى من العهود السابقة، التي مرت وتعاقبت فيها الأجيال الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه. فإنهم لما كذبوا نالهم العذاب ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ ﴾ فقد نالوا في الدنيا سوء عاقبة كفرهم، ومعاداتهم لرسلهم عليهم الصلاة والسلام،

وذلك بما حصل لهم من العذاب والتدمير والهلاك، والغرق لقوم نوح، والهلاك لقوم عاد وثمود وقوم لوط ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولهم في الآخرة عذاب أليم. وهو عذاب النار الذي يصطلي فيه كل من كفر. وفي هذا تذكير وترهيب لمن لم يتابع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أعطت دلالة ﴿ فَذَاقُوا ﴾ التذوق واستطعام العذاب، وهو إشارة وبيان لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. فإن شدة العذاب وقوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم التي هي أدق الحواس.

وكل هذا هو لقاء كفرهم ﴿ فَذَاقُوا ﴾ فنالوا ﴿ وَبَالَ ﴾ الجزاء السيء ﴿ أَمْرِهِمْ ﴾ الذي هو كفرهم. ثم أعقبه ببيان عذاب كفرهم في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فلهم بسبب كفرهم ﴿ عَذَابٌ ﴾ وصفة هذا العذاب أنه ﴿ أَلِيمٌ ﴾ أي: شديد الألم. مما يفيد أن عليكم أيها الأحياء الاتعاظ بما كان للأمم الكافرة قبل أن تكونوا مثلهم. وهذا الوعظ والإنذار هو من عظيم رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم عاقبة الكفر، والاستكبار. وأن لا ينقادوا إلى أهوائهم، بل إن واجبهم هو الانقياد للحق، والتواضع له. مما يبين عاقبة الاستكبار، وأنه أساس البطر. وأن مآل صاحبه إلى العذاب الأليم. فنسأل الله تعالى حُسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

ثم يرتقي بهم الوعظ إلى تفاصيل ما كان من حال تلك الأمم السابقة مع أنبيائهم. فيخبر الله تعالى بالمزيد من تفاصيل كفرهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فذلك الشأن الذي وصلوا إليه هو أنه كانت تأتي إليهم رسلهم المخصوصة بهم، ثم يستنكفون من أن يكون المرسلين من جنس البشر، فأنكروا وكفروا، بسبب تماديهم في الرفض. وقد بدأ البيان الكريم باسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي: ذلك الذي حصلوا عليه من وبال الأمر في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فقد كانت رُسُل الله تعالى يأتون إليهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي: بالحقائق من الحجج والبراهين، والأدلة التي تثبت لهم أنهم مُرسلون من الله تعالى إليهم. فلم يكن ذلك الشأن من غير حجج، بل بالحجج كما هو الحال من الحجج التي جاءكم بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسها القرآن العظيم.

ثم تمادوا في الكفر والإنكار، وأخذوا يشترطون في مواصفات الرسل. فأنكروا أنهم مُرسَلُون من الله عَزَّ وجل بحجة أنهم بشر مثلهم ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ سؤال استنكار واعتراض منهم. فلستم متميزين عنا بأي شيء، فلم تكونوا من جنس آخر، بل أنتم مثلنا من جنس البشر. بما يفيد أنهم يريدون رسولاً من غير

جنس البشر. ولو كان من غير جنس البشر لاستنكروا هيئتهم، ولما عرفوا كلامهم، وطعنوا فيهم وأنكروهم، واتهموهم، واعترضوا عليهم. خاصة وأن المرسلين يأتون بالأدلة والبراهين، والآيات الدالة على أنهم مُكَلَّفُون بالرسالة ممن يملك تلك البراهين والآيات العظيمة سبحانه وتعالى.

وبناء على هذا الافتراء فارقوا وتركوا رسلهم ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ فانصرفوا عن المرسلين من باب الاعتراض والإعراض عن قبول دعوتهم عليهم الصلاة والسلام، وتكذيب وإنكار الحجج، ولذلك رموهم بكل شائنة، كالسحر والجنون، وغير ذلك. مما يبين بهذا الوعظ الكريم أن المكذبين يتوافقون في انتحال ما يصرفهم عن الحق، بسبب ما في نفوسهم من الكبر والطغيان، ثم يتابعهم في ذلك أعوانهم. وبهذا يحذر تبارك وتعالى عباده من مسلك من سبق، وما حصل لهم من التدمير والهلاك في الدنيا، ولهم في الآخرة ما يستحقون من العذاب الأليم.

ثم يخبر الله تعالى بغناه عمن كفر، وأنه لا حاجة له فيهم، ولا في إسلامهم، بل الحاجة لهم. فقال عَزَّ جل ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن الله تعالى غني عن إسلامهم، لأنه لا يحتاج إليهم في شيء، بل هم المحتاجون لرحمة ربهم في الدنيا والآخرة. ثم يؤكد تبارك وتعالى كمال غناه بقوله عَزَّ جل ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن الله تعالى متصف بأنه ﴿غَنِيٌّ﴾ والغني هو الذي لا يحتاج إلى أحدٍ من عباده، فإنه المتفرد بالغنى عن خلقه، وأن كل المخلوقات له وحده لا شريك له. وأن مِن غِنَاه عَزَّ وجل أنه لا حاجة له في إيمان أحدٍ من خلقه، ولا في شكره ولا عبادته.

وهو كذلك سبحانه وتعالى، متصف بأنه ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: محمود في ذاته، وفي اسمائه وصفاته وتدبيره، أنه مستوجب للحمد من عباده، لكثرة إنعامه على خلقه. وهو المحمود سبحانه وتعالى على كل حال، سواء حمد العبد ربه أو لم يحمده، فهو المستحق للحمد من عباده، لتفضله بالإنعام عليهم بالنعم التي لا تحصى ولا تُعد. فالحمد لله تعالى على ما أنعم به مِن نِعَمٍ لا تُعَد، وإحسان منه لا يُحد.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن من أسباب ودواعي كفر الكافرين أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت. فقال تعالى ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لقد أنكر الذين كفروا البعث بعد الموت، فافتروا على الله تعالى الكذب بأنهم لن يُبعثوا من قبورهم. وبالتالي أنكروا الحساب، وأنكروا الجزاء، وترتب على ذلك نكرانهم للجنة والنار. وقد ورد إنكارهم بقوله تعالى ﴿زَعَمَ﴾ بما يفيد الافتراء، واختراع الأكاذيب، فيزعمون كذباً وبهتاناً ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ وبناء على هذا الافتراء، أنكروا

المرسلين، وأنكروا الدين، وأنكروا كل حق. وبالتالي يرون أن تصرفات الإنسان بحسب عقله وهواه. مما يفيد أن الكفر بالبعث بعد الموت يجعل من الإنسان طاغية في فهمه وقراراته، وتعامله مع غيره.

ثم يرد الله تعالى عليهم، بتكذيب وإبطال زعمهم، فيقول جَلَّ شأنه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ ﴾ قل يا أيها لرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المنكرين ليوم البعث ﴿ بَلَىٰ ﴾ ليس الأمر كما زعمتم، فهو حرف إبطال لزعمهم من إنكار البعث، وإثبات لحقيقة البعث، بأنه حق كائن لا محالة ولا جدال فيه. ثم يليه القسم ﴿ وَرَبِّي ﴾ فيقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بربه تبارك وتعالى ﴿ لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ليحصلن البعث لكم من قبوركم ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ثم بعد البعث لكم من قبوركم ليخبرنكم الله تعالى بما كان منكم في الدنيا من أعمال. بما يفيد أنكم ستعاينون الحقيقة، وستحاسبون على ما كان منكم من الكفر والبطر، والظلم، وجميع ما كان منكم.

ثم يخبرهم عن أن هذا البعث، وعن هذا الإخبار بما كان منهم في الدنيا، بأنه أمر يسير على ربكم سبحانه وتعالى ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فذلك الشأن والأمر يسير على ربكم جَلَّ جلاله. فلا مشقة ولا صعوبة لله تعالى في ذلك. فقرر تبارك وتعالى يسره لينتفي به كل شك. فإن مَنْ خلق ابتداء قادر على إعادة ما خلق، وذلك بإعادتكم وبعثكم من قبوركم مرة أخرى. بما يفيد ألا تقيسوا قدرة الخالق على قدرات المخلوق. فإن قدرة الله عَزَّ وجل مُطلقة، لا حدود لها، وقدرة المخلوق محدودة من كل وجه، بل متباينة فيما بينهم، وأن العجز سمة من سماتهم، وهي الحالة المخالفة لكمال وعظمة قدرة الله عَزَّ في علاه.

ثم بعد هذا الإخبار والبيان والتعليم العظيم، ينتقل البيان التوجيهي من الله تبارك وتعالى إلى إرشاد المكذبين بالبعث إلى الإيمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو الأنفع والأخير لهم، فقال الله تعالى ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإذا علمتم هذا البيان من الحجج والبراهين من ربكم، وما حاق بالذين كفروا من العذاب الدنيوي، وما سيلحقهم من العذاب الأليم في الآخرة ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ ﴾ فحققوا الإيمان ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فصدقوا وأقروا بالله تعالى ربكم وخالقكم، ولا تشركوا به شيئاً، وصدقوا وأقروا برسوله إليكم صلى الله عليه واسلم، واتبعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه. وكذلك آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ فإن من لوازم الإيمان وشروط تحققه الإيمان بأن القرآن الكريم كتاب الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد سَمَّى اللهُ تعالى القرآن العظيم بالنور ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ لأنه مبدد لظلام الكفر، وظلام الجهل، وكاشف للحق، ومبين الطريق المستقيم الذي يصل به المؤمن للخير والحق والنجاة في الدنيا والآخرة. وهو نور بما تضمنه من الأحكام والتشريع، والمواعظ، والترغيب والترهيب، والأخلاق التي تزكوا بها النفوس وترتقي، فَتُبْعِدُ العباد عن منكرات الأخلاق وسيئها. وكذلك هو نور بما يكشفه عن حال الأمم السابقة، وهو نور بما يجنيه المؤمن من أجر تلاوته في الدنيا والآخرة. ومن جلال وعظيم منزلة القرآن أن نسب الله تعالى التنزيل إليه ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ وكذلك أن وروده للدنيا من العلو والارتفاع. وأنه كلام ربنا سبحانه وتعالى. مما يبين ويفيد عظمة القرآن الكريم، ووجوب ملازمته، والانقياد له.

ثم يحث الله تبارك وتعالى عباده على الاجتهاد في الطاعة من خلال بيان كمال علمه وإحاطته بعباده.

فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإن ربكم عالم بما يكون منكم من أعمال، ونوايا، وقدرات، فلا يخفى عليه عَزَّ وجل منكم شيء أبداً. فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر منكم وما بطن. ليشمل ذلك السرائر والنوايا، وما اختلج في القلوب ولم ينطق به اللسان. مما يفيد احذروا من التقصير، ومن سيئات الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال والمسابقة إليها، فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله.

وقد أفادت دلالة الخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر أعمالكم وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت. وبما يفيد كذلك أنه يجب عليكم أن تتعاملوا مع ربكم من خلال ذلك العلم والفهم لعظمة عِلم ربكم العزيز الحكيم. فإن ربكم عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً. وفي هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في المؤمن، أو الْمُخَاطَب الانتباه، واليقظة، والحرص والتَّحَرُّص من التأخر عن المطلوب، والبعد عن فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر. والتوقي منها بكل حذر، وكذلك بأن لا يحتقر من المعروف شيئاً أبداً، مهما كان في نظره قليلاً زهيداً، فإن الله تعالى عليم بالصغائر والكبائر، فَيُثيب ويجازي عليها، ويضاعف أضعافاً مضاعفة للعاملين للخير. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع خلقه، في تحركاتهم، وأماكنهم، وإمكاناتهم، وقدراتهم. فلا يغيب عنه من خلقه شيء، وفي هذا العلم بأن الله تعالى خبير ما يُقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله العليم الخبير.

ومن دقائق البيان أنه بفضله سبحانه وتعالى جعل مناط الحساب على الأعمال دون ما تكنه وتوسوس به القلوب، إذ خص الأعمال فقط ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ بالرغم من علمه عَزَّ وجل بما يُسَرُّ وما يوسوس

به العباد في نفوسهم، وبما يبطنون، لإفادة أن المحاسبة كائنة على العمل، وما يتكلم به العبد، أما البواطن فإن لم تتحول إلى أعمال فليست مما يحاسبكم عليه ربكم. قال صلى الله عليه وسلم (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل أو تكلم)[١] فاحذروا أن يتحول شُح وباطل وسوسة القلوب الرديئة إلى أعمال فعلية، أو أقوال منطوقة. وهذا التخصيص والقصر على الأعمال بالرغم من أن دلالة معنى الخبير ﴿ خَبِيرٌ ﴾ تشمل كمال العلم بالظاهر والباطن. ما يدل على رحمته ومغفرته عَزَّ وجل. فإن الله تعالى يعلم كل شيء، حتى دقائق ما يكون من العبد، مما يظهر منه، ومما يُبطن، كأعمال القلوب والخواطر. فأوقع سبحانه وتعالى دلالة لفظ الخبير على أعمال العباد الظاهرة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وهذا من فضله وكرمه عَزَّ وجل.

فإذا علم وأيقن الإنسان بدلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ جعل منه ذلك العلم العظيم، شخصاً وشخصية ملتجئة إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه مُوقِن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يجعل منه هذا العلم إنساناً كثير الاستحضار لمراقبة الله تعالى له في جميع تصرفاته وأحواله، فيدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له. وطمعاً في أنه إذا عمل عملاً صالحاً أيقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه عِلْمٌ عظيم، يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خير وهو قادر عليه، قال لنفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه بالخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الوعظ بما سيكون من البعث والجزاء والحساب، وحصول التفاوت بين العباد. فقال تعالى ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢١٥) برقم (٢٥٢٨)

سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ واذكروا ذلك اليوم الذي يجمعكم الله تعالى مع بقية الخلائق. فإنه يوم مهول، إذ سَمَّاه الله تعالى بيوم الجمع ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ فهو اليوم الذي يجتمع فيه الخلائق، أولهم وآخرهم. وهو يوم القيامة. وسَمَّى الله تعالى ذلك اليوم بأنه ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ لأنه عَزَّ وجل يجمع فيه الجن والإنس، وأهل السماء، وأهل الأرض. وقد نعته الله تعالى بأنه يوم ﴿لِيَوۡمِ﴾ ليدل على أنه يوم واحد. ليفيد الافتراق بعد هذا اليوم بين العباد، كل بحسب ما اكتسب في الدنيا. وقد أظهر الله تعالى قدرته وهيبته عَزَّ وجل بأن نسب الجمع له جَلَّ في علاه ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ ﴾ وقد وصفه بما يفيد التهويل والتعظيم ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ الذي يبين ويظهر كمال قدرته عَزَّ وجل، وهو ما فيه للكافرين.

ثم وصف هذا اليوم بأنه ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ لِمَا يظهر فيه من الغبن، الذي هو حسرات المتحسرين من أهل الباطل. وهو من حصول الغبن بفوات الحظ. فتظهر الحسرة والندامة لمن كفر، فخسر بكفره ما كان له من النعيم فيما لو آمن وصَدَّق. ففي ذلك اليوم يغبن أهل الجنة أهل النار بما فازوا بها من النعيم، وبما حصل عليه أهل الكفر من النار. فيتحسر الناس على ما فاتهم من الدرجات. وقد أشار الله تعالى له باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ليفيد التهويل والتعظيم لمقامه ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ لما يحصل فيه من شدة الغبن، نتيجة الخسارة التي لا يمكن تعويضها أبداً. وفي هذا البيان من الوعظ ما يبين ويوضح رحمة الله تعالى، بأن نصح العباد، وبين لهم ما هم مقبلون عليه، وحذرهم، وكشف لهم حقائق يوم القيام، حتى لا يلوم الإنسان إلا نفسه.

ثم يخبر الله تعالى بما يكون منه سبحانه وتعالى مع عباده المؤمنين في ذلك الموقف. فقال تعالى ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ فإن من اتصف بصفتين عظيمتين: فإن له عظيم المثوبة وأحسن المعاملة من ربه عَزَّ وجل: الأولى: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ وهو التصديق بالله تعالى وحده لا شريك، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو، وأنه مالك الملك. وما يتبع ذلك من الإيمان بكتبه ورسله، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. لأن من آمن بالله تعالى آمن بما أمر به. والأمر الثاني هو ﴿ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا ﴾ أي: الاستقامة على الدين، فيؤدي الصالحات التي أمر الله تعالى بها. وقد أجملها سبحانه وتعالى في دلالة الصالحات

﴿وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ لأن جميع شريعة الله تعالى هي مُصْلِحَةٌ للعباد في دنياهم وآخرتهم. وهذا الإجمال من بلاغة البيان. فهناك منهج من الصلاح من الله ربكم، وهناك اتباع وعمل بهذا الصلاح منكم أيها الناس. وهو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الدين العظيم.

فالعمل بالصالحات هي الإتيان بالطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة ﴿صَٰلِحٗا﴾ جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها. وقد جمع قوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ قد جمع ما بين ما يجب أن تحمله القلوب والسرائر، وبين الامتثال والانقياد بأعمال الدين. فجمعت بن أعمال البواطن وبين أعمال الجوارح. مما يبين قوة التكامل بين ما تحمله القلوب، وبين ما تصدقه النفوس من الطاعة والامتثال بصالح الأعمال، والانتهاء عن المنكرات. وقدم تبارك وتعالى الإيمان لأنه الأصل، فإن التوحيد وجميع مفردات الإيمان أصل للأعمال الصالحة، فمن عمل شيئاً من الصالحات من غير إيمان فلن يقبل الله تعالى منه ذلك، كحال المنافقين.

فمن آمن بالله تعالى، وأطاع ربه، بأن عمل الصالحات التي هي إقامة شريعة الله تعالى، فإن الله تعالى برحمته يحقق له السعادة، والتي أولها: أنه ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي: يمحو عنه ذنوبه، وما يترتب عليها من العقاب. فالتكفير هو محو وإزالة أثر السيئات التي عملوها في الدنيا، وذلك بدفع الضرر المترتب على ما كان من أعمالهم التي تستوجب العقوبة. وهذا غاية الكرم من الله تعالى، بأن يكفر عن المؤمنين سيئاتهم. وقد وردت بصيغة الجمع، ليبين أنها وإن كثرت، فإن الله تعالى يعفوا ويصفح.

والأمر الثاني: هو ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فإن الله تعالى يُدخل من لزم طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يدخله الجنة. وقد وردت الجنة بصيغة الجمع ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾ فليست جنة واحدة، بل جنات متعددة، ثم وصفها سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت الأنهار بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار. والجنات هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان متدفق؛ ومستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. وقد ورد البيان للأنهار بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها، ودوام تدفقها من تحت تلك المباني، فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن استمرار الحياة فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فحياتهم فيها هي حياة الخلود الدائم الأبدي ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: الأبد الذي لا ينقطع. فدلالة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تفيد الأبدية، ثم أكد ذلك سبحانه وتعالى من باب المبالغة بدلالة ﴿أَبَدًا﴾ التي تعني أنه خلود لا ينقطع، ولا ينتهي ولا يزول. اللهم نسألك الجنة لنا ولأهلينا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

ثم يُخبر اللهُ سبحانه وتعالى عن عظمة هذا الجزاء، لمن تحصل عليه، فقال جَلَّ شأنه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فمن حصل على هذا الجزاء فقد نال وظفر بالخير ظفراً عظيماً لا يعادله فوز ومكسب. بل ورد الفوز بصيغة التحقق والتعظيم، بأنه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الفوز الذي تعاظم، وبلغ منتهاه، وبما يفيد المبالغة في عظمته. فهو ليس فوزاً سهلاً، ولا قليلاً، بل متعاظم في منزلته، ومقداره وقدره، ورفعته، وكثرته، بما لا يُوصف. مما يحفز المؤمن ويعلمه أن ثواب الله تعالى وكرم عطائه عظيم لمن اتقاه وأطاعه، فإن من تعاظم هذا الفوز أن كثرته وقوته وعظمته لا يستطيع أحد أن يُوزنه ويُقَيِّمه ويُقَدِّر عظمة كرم الله تعالى وجزيل عطائه.

وقد نوه عنه سبحانه وتعالى باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قوله عَزّ وجل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لإفادة التعظيم لهذا الفوز الذي ناله أهل الإيمان. فإن ذلك هو المكسب الحقيقي، والظفر والفوز العظيم الذي ليس هناك أعظم منه من الفوز، بسبب ما كان من طلبهم له، وابتغائهم حين كانوا في حياتهم الدنيا. اللهم نسألك الجنة لنا ولأهلينا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى جزاء المؤمنين يوم القيامة الذي هو يوم التغابن، يخبر تبارك وتعالى بعذاب الذين كفروا، فإنه في مقابل الذين آمنوا: فإن للذين كفروا بهذا الدين، وكذبوا بما جاءهم من الدلائل والبراهين الدالة عليه، فإن لهم عذاب النار خالدين فيه أبداً. فقال جَلَّ شأنه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأما الذين كفروا، ولم يؤمنوا فجحدوا بآيات

الله تعالى، من الحجج والبراهين فإنهم مصاحبون للنار، فلا تنفك عنهم، ولا ينفكون عنها. فدلالة المصاحبة في قوله تعالى ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّـارِ﴾ تفيد الملازمة؟ فمصاحبتهم للنار هي مصاحبة ملاصقة وملازمة، فلا يخرجون منها. وقد أفادت دلالة ﴿أَصۡحَـٰبُ﴾ على الملازمة لعذاب النار بالخلود فيها، وعدم الخروج منها. كما تدل على أنهم استصحبوا النار بكفرهم وتكذيبهم، فأصبحوا مصاحبين ﴿ٱلنَّـارِ﴾ ذات الشدة في حرارتها. ويستنتج من جزاء كل فريق بما يستحق على عدله سبحانه وتعالى بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين.

وقد جمع استصحاب الجحيم لكل من كفر، بتكذيبه وجحوده لآيات الله تعالى، التي هي أدلته وحججه على خلقه، الدالة على وحدانية الله عَزَّ وجل. فإن الكفر يدل على الجحود، وهو أعم من التكذيب، والتكذيب يدل على النكران للأدلة الواضحة، الموجبة للإيمان والتصديق، فالتكذيب رد للحق بعد معرفته والعلم به. ويعطي النص الكريم دلالة الجمع بين عموم الكفر وخصوص التكذيب، الذي هو وجه من أوجه الكفر ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ فصفة الكفر والتكذيب تفيد التأكيد وتفصيل البيان، مما يدل على توغلهم في الكفر.

وقد أشار إليهم البيان الكريم باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بما يفيد التهويل لمصيرهم، فأولئك هم المخصوصون بمصاحبة النار ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّـارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: ففي المقابل لجزاء المؤمنين الجنة: فإن الذين كفروا بهذا الدين، وكذبوا بما جاءهم من الدلائل والبراهين الدالة عليه، فإن لهم عذاب النار خالدين فيه ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فبئس المآل الذي سيؤولون إليه، بذهابهم إلى النار التي أُعدت لهم. فإن مصير الكفرة المكذبين إلى جهنم وبئس المصير.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا المصير الذي سيؤولون إليه بأبشع وأقبح أنواع الوصف ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فدلالة ﴿وَبِئۡسَ﴾ تفيد البؤس الذي حل بهم من شدة المصير الذي صاروا إليه، وهي تفيد أقصى قوة الذم وأبلغه. إذ تجمع كلمة ﴿وَبِئۡسَ﴾ جميع صفات الذم كلها، فهي أبلغ وصف عند إرادة عظيم الذم وأبلغه. وفي هذا بيان لِمَا آل إليه المنافقون والكافرون. ليفيد التحذير لمن هم على قيد الحياة من النفاق والكفر، بما أخبر وأظهر سبحانه وتعالى من حقائق المصير. وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى بالعباد، إذ يحذرهم، ويبين لهم، ويرشدهم. فنسأل الله تعالى العافية، والنجاة، ودخول الجنة بسلام.

ثم أخبر تبارك وتعالى أن جميع تلك المصائب التي تقع في الأرض وعلى الأنفس، أو على الأموال والممتلكات وغيرها، فإنها بإذن من الله تعالى، فلا تحدث إلا بمشيئة الله تعالى، وهي مسجلة ومكتوبة قبل وقوعها في كتاب اللوح المحفوظ. وذلك لعلم الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون. فقال عَزَّ وجل﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ما أصاب الإنسان من شيء مما يكرهه إلا وقد حصل بإذن من الله تعالى. وسماها الله سبحانه وتعالى ﴿مُّصِيبَةٍ ﴾ والتي هي كل ما يلحق الإنسان من الضرر والنكبات، وجميع ما يسوء الإنسان ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بما يفيد: بأنه لو لم يأذن الله تعالى بذلك لَمَا حصل للمصيبة أن تحصل، بما يفيد أن ما يحصل في الكون من مصائب ليس خارجاً عن إرادة الله تعالى وعلمه ومشيئته، بل هو بعلم الله تعالى وبمشيئته، فلا يحدث في الكون شيء بخلاف علمه وإذنه عَزَّ وجل، لأنه الملك العزيز سبحانه وتعالى، فعَزَّ شأنه وسلطانه.

ومن دقائق البيان الكريم أن جملة ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أفادت الحصر بحرف ﴿إِلَّا ﴾ أي: الحصر لكل ما يقع من المصائب بأنها ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ إلا بموافقته عَزَّ وجل على الحصول. ويفيد ويعني الإذن من الله تعالى بالموافقة على الحدوث والوقوع. ولو شاء الله عَزَّ وجل لَمَا وقعت المصيبة. فلا يحدث في الكون أي شيء إلا بإذنه سبحانه وتعالى. مما يُعَلِّم المؤمن أن يسأل الله تعالى في جميع تقلباته بأن يحفظه الله تعالى من كل ما يكره. كما ورد في الحديث (اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي)[١] والمصيبة هي كل ما يلحق الإنسان من ضرر. وقد أوردها البيان العظيم بقوة بلاغية عظيمة ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فقد جمع الله تعالى تلك المعاني والدلالات في إيجاز عميق، من غير إطناب في التفاصيل، فاستوعبت الآية الكريمة كل نوع من مفردات المصائب، وأحوالها، ومواقعها من الإنسان وما يُحيط به.

وهذا الإعلام والإخبار من الله تعالى يبين أن حال الدنيا لا يخلوا من الأحداث المؤلمة، وأن حال الدنيا مبني على تقلبات أحوالها بالمصائب، وأن الدنيا لا تخلوا من ذلك، بما يقرر عند المؤمن بهذا العلم أن يتقبل، ويتعامل مع المصائب بالحكمة، والرضا بأقدار الله تعالى، وبما يغرس فيه الطمأنينة، بأنه لم تأت المصيبة عرضاً، بل كانت ستقع قبل أن تقع، وأنها بإذن الله تعالى، ولو شاء اللهُ تعالى لما وقعت، وأن من واجب المؤمن الدعاء والاحتماء بالله تعالى. وإذا وقعت حمد الله تعالى وصبر. ومن كرم الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين أنه

---

(١) أبو داود، سنن أبو داود، برقم (٥٠٧٤)

أوضح لهم أنه لا يخرج ولا يحدث شيء من غير إذنه سبحانه وتعالى. وكذلك أفاد هذا البيان سابق علمه تبارك وتعالى بما سيكون قبل أن يكون، ليرفع ويدفع بذلك عن المؤمن الحزن على ما يصيبه، وما يفوتهم من أمور الدنيا، ولا يبطر فرحاً بما يأتيه من الخير، حتى يحصل الاعتدال النفسي والخلقي.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بمواطن العلاج التي تتحقق عند من آمن واستقام لربه تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ فكل من استوفى الإيمان الْمُكَلَّف به العباد، فإن الله تعالى يقابله بالهداية والتوفيق له في أعماله وأقواله، واعتقاده، وفي علمه وفهمه. فمن أصابته مصيبة وهو مؤمن، فإنه فد استقر في قلبه بأنها لم تحدث إلا بإذنه عَزَّ وجل، وبالتالي فإنه يتعامل معها بقوة اليقين، الذي هداه الله تعالى إليه، فيصبر ويحتسب، ويستسلم للقضاء والقدر، خيره وشره. ومن كرم الله تعالى أنه يُقابل كل من يؤمن بأن يهدي قلبه للحق والخير ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ فكل من استوفى الإيمان الْمُكَلَّف به العباد، فإن الله تعالى يقابله بالهداية والتوفيق له في أعماله وأقواله، واعتقاده، وفي علمه وفهمه. وقد أوقع الله تعالى هذه الهدية على القلب ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ لأن القلب هو مركز العقل، والعواطف، وهو مركز القرار للإنسان، فإذا اهتدى القلب ظهر ذلك على تصرفات العبد، وعلى سلوكه، وتفكيره، وقراراته. فيصبح من الموفقين والْمُسددين من ربهم تبارك وتعالى. مما يفيد أن من لم يؤمن فإن الله تعالى لا يهديه للخير. فتصرفاته تميل إلى الباطل، وما يتبع ذلك من القلق والاضطراب النفسي والسلوكي.

ثم يتتابع البيان العظيم في إظهار علم الله تبارك وتعالى، الذي أحاط بكل مخلوقاته. فعمم سبحانه وتعالى سعة علمه. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم الله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً. فلا يغيب عن علمه شيء أبداً، فعلمه عَزَّ وجل قد أحاط بالشيء قبل حدوثه وأثناء حدوثه وبعد حدوثه. فإن ربكم بكل ما خلق عليم. فاستوفى علمه عَزَّ وجل الإحاطة التامة بكل شيء، فاستقصى كل حدث، وكل أمر، وكل قول، وكل فعل، وكل حركة، وكل علة، وكل سبب، وجميع ما في الضمائر، وما أخفته الصدور، وما توسوس به النفوس. وأن كل ما يخفى على المخلوقين فإنه لا يخفى على الله عَزَّ وجل. فهي دلالة قد استقصت وأحاطت كل شيء بالعلم، واستوفته بالمعرفة التامة، والقدرة الكاملة. فسبحان الله العظيم العليم.

ثم بعد الاستطراد بالدلائل والشواهد على عظيم قدرته سبحانه وتعالى، ينتقل البيان العظيم بعباده إلى ما يجب أن يكون منهم. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فامتثلوا بالطاعة لربكم سبحانه وتعالى، وكذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم. فأمرهم سبحانه وتعالى بما يجب أن يكونوا عليه من الطاعة والامتثال لربهم سبحانه وتعالى، ولرسوله صلى الله عليه

وسلم. وقد ورد الأمر منه سبحانه وتعالى بفعل دلالة الوجوب ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ الذي يعني الوجوب. فاستجيبوا لله ربكم، واستجيبوا لرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم بالطاعة والامتثال. فإن هذا هو ما يجب عليكم.

ثم ذكر سبحانه وتعال حال إعراضهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فإن أعرضتم عما جاءكم به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد حقق وأدى عليه الصلاة والسلام الواجب المطلوب منه، وتحملتم أنتم تبعات ومسؤولية إعراضكم. فإن الذي يجب عليه صلى الله عليه وسلم هو تبليغ رسالة ربه عَزَّ وجل إليكم، تبليغاً واضحاً ظاهراً، وليس عليه غير ذلك. فلا منفعة يأخذها منكم على تصديقكم وإيمانكم، ولا إثم يلحقه نتيجة كفركم، فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن كفرتم فعليكم يقع العذاب والجزاء. مما يبين أن مسؤولية المرسلين هي في الإبلاغ المبين، وهي هداية الدلالة على الحق، أما دلالة التوفيق فليس لهم فيها سبيل.

وفي قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ما يفيد أن للإنسان مشيئة الاختيار في الطاعة أو الرفض. كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته وعدله أن للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئته تبارك وتعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، حتى يعلموا ما يكون منهم، وما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم.

وأفادت دلالة قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ هو احتمال خارج عن الأصل الذي يجب أن يكونوا عليه من المتابعة والطاعة، لأن الأصل هو القبول وليس الرفض، لقوة الحجج والبراهين. مما يبين ويوضح أهمية وضع الاحتمال غير المتوقع، أي: المنافي لما يجب أن يتحقق به الهدف، حتى لا يتفاجأ بما يكون من الأمر في الدعوة، أو في غيرها عند تعيين الأهداف والقيام بأدائها. فيُعَلِّمُ الرسول صلى الله عليه وسلم والداعية أن التولي احتمال قائم. وقد ورد قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ بما يفيد أنه احتمال خارج عن الأصل، لأن الأصل هو القبول وليس الرفض، لقوة الحجج والبراهين. فهو احتمال خارج عن الأصل. وهذه دقة في التكليف، تُعَلِّم المؤمن أهمية وضع الاحتمالات غير المتوقعة، مهما كانت الوسائل من الوضوح، أو القدرة على تحقيق الهدف، حتى يعرف المُكَلَّف كيف يتعامل إزاء ما لم يكن في الحسبان، حين يظهر عند السعي والطلب، وهو في طريقه لتحقيق الهدف. وهذا من أهم قواعد إدارة الأعمال، وشؤون الحياة، وهي من أهم قواعد التكليف، وتشريع

الأنظمة، حتى يتم معالجة جميع الاحتمالات. مما يدل على أن تشريع الله تعالى مدرسة عظيمة في ذلك، يستلزم استظهارها وتعليمها، فهي تبني في المتلقي كيف يحرر ضوابط الأداء والمسؤوليات.

وقد قد أعطت دلالة قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ تحديد وحصر المسؤولية. فإن مهمتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم مقتصرة على دعوتهم، ببيان الحق لهم فقط. وفي هذا البيان تطييب ومواساة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إزاء ما يواجه من قومه المكذبين، وليكون درساً لكل من يدعو إلى الخير، بأن مهمة الداعية والناصح والمرشد تنحصر في الإبلاغ والإرشاد، وليس هو مكلف بهداية الناس الهداية التوفيقية، بل الواجب منحصر في هداية الدلالة على الخير. مما يبين محدودية المسؤولية للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن ليس عليه إلا هداية البيان والدلالة على مراد الله تعالى، والحث على ذلك، وأما هداية التوفيق فليس هو مُوكل بها، وبالتالي لم يكلفه الله تعالى بوجوب هداية من أعرض وتولى، كما أنه لم يُكَلَّف بما لا يطيق من الهيمنة وحفظ أعمال من أعرض وتولى، وأن يُحاسبهم ويعاقبهم عليها. فواجب الرسول هو البلاغ، بما يفيد أن الذي على الرسول صلى الله عليه وسلم هو هداية الإرشاد والدلالة على الحق، الذي تقوم به الحجة. وكل إنسان مسؤول عن نفسه.

وقد حصر وقصر الوجوب والمسؤولية في الأداء ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وبذلك نفى التكليف عَمَّا هو خارج عن قدرة الْمُكَلَّف. فمهمتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم مقتصرة فقط على كمال البلاغ، ولا تتحمل مسؤولية ما هو خارج عن قدرتك، من كفرهم وإعراضهم، وذلك بنفي ما لا قدرة له فيه صلى الله عليه وسلم. مما يفيد ألا يُكَلَّف الإنسان بما لا يستطيع مما هو خارج عن قدرته. وهذا من غزارة القرآن في تحرير وتقرير المسؤولية، ليقاس عليها الأمر عند تحرير اللوائح التنظيمية للأعمال. وأهمية الاحتراز، ووضع التوقعات، تداركاً لنفي الحيرة عند حدوث ما لم يكن في الحسبان.

ثم يخبر الله تعالى عن انفراده بالوحدانية والألوهية عَزَّ وجل. فقال تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الله ربكم وحده لا شريك له، هو الذي لا معبود بحق غيره عَزَّ في علاه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيقرر توحيده، وإفراده بالعبادة، فهو المألوه الذي لا إله غيره عَزَّ في علاه. فبدأ مطلع البيان باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ لإفادة التعظيم والتبجيل مع الحصر بما سيأتي من بيان. بأنه الله وحده لا شريك له. ثم لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ذو الألوهية، الذي يجمع صفات الكما والجلال. ثم بيان وحدانيته عَزَّ وجل، بأن الله هو الإله الذي لا إله غيره. وقد تضمنت دلالة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفي وإبطال

أُلوهية غير الله سبحانه وتعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ثم قصر الألوهية له تبارك وتعالى ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هو فقط الإله المألوه، والرب لكل شيء. فلا معبود بحق غيره عَزَّ وجل، وأن غيره دونه، فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ في علاه. وأفادت دلالة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله يُعبد في الأرض ولا في السماء غيره تبارك وتعالى. وفي تَصَدُّر التوحيد ما يفيد ويبين إظهار أهميته، وجلالة قدره.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأن من مطالب وحقائق الإيمان هو حصول التوكل من المؤمن على الله تعالى، الذي هو ربه وخالقه. فقال عَزَّ وجل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن من حقائق إيمان المؤمنين أنهم يَكِلُون أمرهم إليه سبحانه وتعالى، ويفوضون جميع مطالبهم ورجاءهم وخوفهم وشؤنهم إلى عونه وتسديده، وحفظه عَزَّ وجل، ويتوكلون على قدرته جَلَّ شأنه في دفع الشرور والأحزان والمضار والمصائب، وعموم ما يكرهون، وكذلك في جلب المنافع والخيرات. وأن يتعوذ المؤمن بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن كل شر، ومن كل خوف، ومن كل حزن. فإن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، فهو القادر على دفع الشيطان وجميع الشرور والأحزان والهموم، فالتجئوا إلى ربكم أيها المؤمنون بالتوكل عليه سبحانه وتعالى، والاستعانة به. وفي هذا تفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى، بالاعتماد عليه عَزَّ وجل في جلب الخير وطلبه، وفي دفع الشر والتوقي منه. وهذا المنهج الرباني يعطي ويُحدث في قلب المؤمن طمأنينة وأُنْساً في كل ما يجري عليه في شأنه وشأن غيره، فيأخذ بالأسباب، مع الاعتقاد أنها لن تؤثر إلا بأمر الله تعالى وتوفيقه، مما يلزم وجوب تحقيق التوكل عليه جَلَّ في علاه، وأنه لن يحصل إلا ما كتبه الله تعالى وقضاه، فيعيش المؤمن بهذا التوكل في طمأنينة، وانشراح صدر.

وقد ورد في الحديث، قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل. وضلع الدين وغلبة الرجال)(١) فأوكل صلى الله عليه وسلم شأنه على ربه تبارك وتعالى. فإن الحزن متعلق بما مضى، والهموم متعلقة بما هو قادم، وما هو فيه الإنسان. وأما العجز: فيكون حين تُوجد الإرادة مع ضعف القدرة، أو عدم وجودها، فَتَحُول قلة القدرة بين المرء وبين تحقيق مراده. وأما الكسل فهو وجود القدرة، مع عدم وجود الإرادة. فهي تمثل حالات الإنسان النفسية التي قد يكون عليها. فيسأل المؤمن ربه سبحانه وتعالى عونه، وتوفيقه.

كما أن في ارتباط التوكل بالإيمان، ما يبين أن التوكل من حقائق وركائز الإيمان. وبالتالي فإن تحقق اعتقاده في العبد دلالة على الإيمان، كما قال تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بما يفيد أن

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٣٦٩)

غير المؤمن لا يتوكل على الله تعالى. وبما يفيد أيضاً أن من حقائق الإيمان التوكل على تعالى. فإن التوكل على الله عَزَّ وجل هو تطبيق عملي لحقائق الإيمان، ويتحقق به شجاعة القلب، ومواجهة الأمور بقوة الصبر، والاعتماد على الله تعالى، ونفي الحول والقوة من المتوكل، وإخلاصها لله تعالى، فهو سبحانه وتعالى صاحب القوة والقدرة على تحويل حال المؤمن، بل وحال المؤمنين جميعاً إلى كل خير. فله الملك والقدرة والسلطان الذي لا ينازعه فيه أحد أبداً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾

يختم الله تعالى سورة التغابن بتوجيه كريم للمؤمنين، وموعظة وتعليماً وتحذيراً من عوامل فتنة الدنيا، ومنها فتنة الأزواج والأولاد. مع بيان أهمية تقوى لله تعالى، وحثهم على الإنفاق في أوجه الخير المختلفة، والبعد عن الشح، ومحفزاً لهم على ذلك ببيان كمال علمه سبحانه وتعالى بجميع عباده، سواء كان في الغيب أو الشهادة. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ يخاطب الله تعالى المؤمنين بأفضل الوصف والمدح والثناء لهم. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية المُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته التكريم للمُخَاطَبين، مع شد الانتباه لهم بما يجب عليهم من إنفاذ توجيهات ربهم سبحانه وتعالى.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الذي يثير شوق القلوب للمتابعة، ويدفعها لمعرفة الشيء والأمر الذي ناداهم ربهم من أجله. يخبر سبحانه وتعالى بما يجب على المؤمنين من عدم الاستجابة لمطالب الأزواج والأولاد إن كان فيها مخالفة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ إن من بعض أزواجكم وأولادكم ما يستوجب الحذر منهم، لما يتسببون فيه لكم من الْبُعد عن طاعة ربكم. فاحذروا من الأزواج والأولاد حين يطلبون منكم التقصير في طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا معالجة لِمَا جُبِلَت عليه النفوس من التجاوب لمطالب الأزواج والأولاد بسبب محبتهم ومنزلتهم في النفوس. فوعظهم الله تعالى بالحذر من أن تكون هذه المحبة سبب يؤدي إلى معصية الله تعالى. بما يفيد وضع الحدود اللازمة لتلك المحبة، وتلك المطاوعة. مما يُعَلِّم المؤمن وجوب ضبط التصرفات والمطالب بحسب طاعة الله تعالى، حتى وإن كانت من أعز وأحب الناس إليكم، بحيث تكون هذه المطاوعة والاستجابة غير مخالفة لله تعالى.

ومن دقائق التوجيه الكريم أن الله تعالى لم يعمم العداوة من كل الأزواج والأولاد، بل من بعضهم، حيث ورد البيان بصيغة التبعيض ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ فليس جميعهم أعداء، بل بعضاً منهم. بما يفيد الحذر والانتباه.

وفي هذه معالجة لوقائع حصلت لبعض الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده، ولم

يألوا يثبطوه عن ذلك. فقال الله تعالى: إنهم عدو لكم، فاحذروهم، واسمعوا وأطيعوا، وامضوا لشأنكم. فكان الرجل بعد ذلك إذا مُنِع وثُبِّط مَرَّ بأهله، وأقسم، والقسم يمين. ليفعلن وليعاقبن أهله في ذلك، فقال جَلَّ ثناؤه ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] مما يبين ميزة نزول القرآن مفرقاً، ليعالج شؤون المجتمع المسلم عند نشأته، حيث كانوا حديث عهد بالإسلام، وتبادرهم مظاهر التشتت التي تواجههم ممن يحيطون بهم من المشركين. مما يبين ويوضح حال المسلمين في بداية عهدهم بالإسلام، وما كانوا يعانونه من أقرب الناس إليهم. ولكثرة الخوف الذي شاع بينهم، بسبب أعداء الدين من المشركين. ومعاناة الصحابة رضي الله عنهم، ولكن كانت قوة منهج الإسلام قادرة بفضل الله تعالى على معالجة الأوضاع، حتى استتب أمر الدين وشريعة الله تعالى في الأرض. وليكون ذلك منهجاً للأمة فيما بعد.

وفيه الكشف للحقائق ومنهج التصرف في اتخاذ القرار، وأن من يمنعك عن الدين، وعن لوازمه فإنه عدو لك، مهما كانت قرابته وصلته بك من الأزواج والأولاد. وأن مراد الله تعالى مُقَدَّم على كل محبوب. كما أفاد أن الجاهل يطالب وينصح على غير هدى ولا برهان، وأن على صاحب الحق ألا يرضخ للباطل مهما كان مصدره. وأن عليه أن يعالج الأمر بحزم وبصيرة وحكمة. كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ فقد عالج منهج الله تعالى الشأن بعدة أمور. أولها بيان حكم الناهين عن سلوك الحق، بأنهم أعداء في الدين. وهذه العداوة قد تكون بسبب جهلهم، وينطلق العلاج من الحذر ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ والحذر هو الاحتراز والاحتراس مما يطلبون من عدم الاستجابة لمطالب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فاستوجبت المعالجة التجاوز عنهم، وعن مطالبهم، حتى تتجنبون وتَتَّقُون فتنتهم لكم، فيجب عليكم عدم مطاوعتهم. وهنا لم يعالج ذلك بمعاداتهم بالرغم من أن حالهم معه هو حال العدو ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ وإنما أحالهم إلى الصفح والمغفرة ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من حكمة شريعة الله تعالى، ومنهج الإسلام الرصين الحكيم، الذي يُعَلِّم المؤمن بأدق وأمثل أنواع المعالجة.

ومن دقائق البيان أن جاء الوصف للأزواج بما يشمل الزوج والزوجة ﴿ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ ﴾ فقد يكون من الزوج مع زوجته، وقد يكون من الزوجة مع زوجها. كما ورد كذلك ﴿ وَأَوْلَٰدِكُمْ ﴾ والذي يشمل الأبناء الذكور، والإناث من البنات. وتم جمع العداوة بصيغة المفرد ﴿ عَدُوًّا ﴾ لإفادة نوع العداوة أنها واحدة،

---

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٥/٢٣)

مهما تعددت وتنوعت مصادرها ومفرداتها، سواء من بعضهم أو من جميعهم. وكذلك من دقائق التوجيه الكريم أن الله تعالى لم يعمم العداوة من كل الأزواج والأولاد، بل من بعضهم، حيث ورد البيان بصيغة التبعيض ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ فليس جميعهم أعداء، بل بعضاً منهم. بما يفيد الحذر والانتباه. وفي هذا دقة بيانية، تدل على الإعجاز البياني والبلاغي في تراكيب ألفاظ الآية الكريمة.

ثم أرشدهم سبحانه وتعالى إلى أسلوب الْخُلُق الكريم الذي يجب أن يسلكوه مع أزواجهم وأولادهم. فقال تعالى ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن تعفوا وتصفحوا عنهم بسبب ما ارتكبوه من نهيكم، ومعصيتهم لربهم سبحانه وتعالى فهو الأفضل والأصوب، والشأن الصحيح، فإن ربكم متصف بالمغفرة والرحمة. فكونوا كذلك مع أزواجكم وأولادكم. وقد شمل البيان ثلاث صور وهيئات في التعامل: الأولى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ والعفو هو: ترك المعاقبة بجميع أنواعها ودرجاتها. والثاني: ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ والصفح هو: الإعراض عن اللوم والتقريع. والثالث: ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ والمغفرة هو المسامحة مع الستر وعدم الإشاعة. وهذا من دقائق البيان في إيضاح كمال الأخلاق في التعامل معهم. مما يقدم للمؤمن المنهجية الكريمة في التعامل الإسلامي الرفيع. وقبل ذلك انطلق العلاج من الحذر ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ بالاحتراز والاحتراس مما يطلبون. وذلك بعدم الاستجابة لمطالبهم بأن تعصوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما تعاملوا معهم بأخلاق الحكمة الراقية، لحفظ خطوط العودة، ووأد الاستعداء بالحكمة والمعاملة الحسنة. لأن معاملة الاستعداء تُوجب النفرة والتنافر، ورفع مستواها كلما زادة الحدة. بينما المعالجة لها بمكارم الأخلاق يئدها، ويستثير التعقل عند الطرف الآخر.

ثم يحثهم ويشجعهم تبارك وتعالى على ذلك العفو والصفح بأن يتأسوا بربهم سبحانه وتعالى في مغفرته ورحمته. فقال تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله ربكم متصف بالمغفرة والرحمة، فإنه يغفر السيئات ويمحوها عن التائبين، فلا يعاقب عليها إذا أقلعوا عن ذنوبهم وتركوها، بل يمحوها ويسترها. فربكم ﴿غَفُورٌ﴾ أي: فإن الله تعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب وسترها ومحوها، فهو كثير المغفرة للعباد. وكذلك هو ﴿رَّحِيمٌ﴾ فهو المتصف بالرحمة، والمبالغ فيها من غير تخصيص. بما يدل على كثرتها. أي: الْمُوصِل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، هو إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وفي هذا التوجيه الكريم زيادة الترغيب للمؤمنين بجميل التعامل، وتصحيح أحوالهم ومفاهيمهم. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء

بأحسن الأساليب، وأن الأخطاء ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. وكذلك اجعلوها بينكم. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد للحق، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق والتسامح، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، فيشد بعضه بعضاً.

مما يبين عظيم كرم الله تعالى ورحمته بالعباد. فالحمد لله تعالى على فضله ومغفرته ورحمته. ليعطي ذلك المنهج الرباني أهمية الصفح عن الجاهل، وأهمية تعليمه، وأن الجاهل قد تظهر وتبدر منه من الأخلاق ما لا يليق، فالتعامل معه بحكمة، كما تعامل صلى الله عليه وسلم مع الأعرابي الذي بال في المسجد، فنهى الصحابة رضي الله عنهم أن يزرموه[١] حتى انتهى من قضاء حاجته، ثم نبهه وعلمه عليه الصلاة والسلام.

وقد بدأ البيان بنون التوكيد ﴿فَإِنَّ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم جاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ثم المبالغة في المغفرة والرحمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة الترغيب لهم في تصحيح أحوالهم، والانتقال بأنفسهم إلى الإيمان. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد للحق، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، ويشد بعضه بعضاً.

ثم يبين سبحانه وتعالى حقيقة الأموال والأولاد، وأثرها على قرارات الإنسان، وأنها قد تفتنه عن مصالح الآخرة، بسبب قوة تأثيرها على النفس البشرية، فقال تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ إنما حقيقة أموالكم وأولادكم أنها متصفة من حيث التأثير عليكم بأنها ﴿فِتۡنَةٞ﴾ أي: من قوة محبة الإنسان لها أنها تصرفه عن مصالح الآخرة، وقد توقعه في المحاذير، مما يجب عليكم الانتباه والحذر من تأثيرها القلبي على دينكم وقراراتكم وأخلاقكم. وبالتالي فإنها اختبار وامتحان لهذا الإنسان. فإن عطاء الأموال والأولاد منه لكم هو نعمة واختبار، أتطيعونه فيها، وتشكرونه عليها، أو تنشغلون بها عن طاعته عَزَّ وجل، وتجعلونها طريقاً للمعصية والتفاخر بها، واستخدامها في معصيته سبحانه وتعالى.

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٠٢٥)

وقد بدأ البيان بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَآ ﴾ التي أعطت دلالة المبالغة في فتنة المال والأولاد، وكأنما حُصرت فيها، وذلك لتهويل أثر المال والأولاد، حتى يكون الحذر منكم تجاهها واضحاً جلياً. ومن بلاغة البيان في مجال معرفة خصائص النفس البشرية أن قَدَّم الله تبارك وتعالى المال على الأولاد ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ ﴾ وذلك لشدة حب الإنسان للمال، حتى أنه الأكثر التهاء وإلهاء من الأولاد، وربما انشغل بالمال عن أولاده، وأضاع مسؤوليته عنهم بسبب الاشتغال بجمع المال. ففي التقديم والتأخير دقة في الكشف عن الخصائص البشرية، وأولوياتها في الالتهاء، والأقوى أثراً في الانشغال عن طاعة الله تعالى. مما يدل على الإعجاز البياني في ترتيب المؤثرات بحسب قوة تأثيرها، وتغايرها في كل شأن وأمر. مما يدل على كمال دقة القرآن الكريم في التقديم والتأخير، بما يبين أنه كتاب إعجاز، وأنه كلام الله العزيز الحكيم.

ومن بلاغة البيان أن دلالة ﴿ أَمْوَٰلُكُمْ ﴾ قد استوعبت جميع الممتلكات، لتشمل جميع ما يتمول به الإنسان، ويملكه سواء من الذهب أو الفضة، أو النقود، أو المباني، أو المزارع، أو الأنعام والحرث، وغيرها. وكذلك دلالة ﴿ وَأَوْلَـٰدُكُمْ ﴾ التي وردت بصيغة الجمع، لتعطي التكاثر، فكلما كثر الأبناء والبنات زاد الانشغال بهم. لأن الرجل يتقوى بهم، ويتزين بكثرتهم، وهم عون له في الشدائد.

وهنا لم ينف سبحانه وتعالى عن الأموال والأولاد الأثر والحقيقة من المنافع العظيمة لها، بأن زَهدهم فيها، بل نوه إلى عدم الافتتان بها عن طاعته جَلَّ جلاله. فقد أورد سبحانه وتعالى البيان توضيحاً لقوتها في التأثير من أجل التحذير من الانشغال بهما عما ينفع العبد من طاعة الله تعالى، وعن الغاية التي خُلِق من أجلها الإنسان، وهي عبادة الله تعالى. فليس البيان هو بيان تزهيد فيها، بل بيان تصحيح وتوضيح لحقيقتها، لِيُحسن العبد استخدامهما واستعمالهما وفق منهجه سبحانه وتعالى. ويكون عاقلاً في ترتيب أولوياته. وفي هذا البيان من الله تعالى منهج تعليمي في استخدام وترتيب الأولويات، ومعرفة التفاضل بين الأمور، وأن على المؤمن ألا يجعل المفضول متقدم على الفاضل، بل يضبط الترتيب وفق منهج الله تعالى.

مما يبين أن منهج الإسلام قائم على ترتيب الأولويات بما يعلم عباده العلم والفقه، والفهم الذي يجعلهم يميزون الأمور في ترتيبها الترتيب الصحيح. فعليكم أن تعتنوا أولاً بالأخير والأفضل. وتأجلون المفضول لوقته وحينه. فلا تقدموا المفضول على الفاضل. مما يبين دقائق القرآن الكريم في التعليم والتشجيع والتحفيز. وأهمية ترتيب الأولويات، خاصة عندما يكون هناك أولويات وفضائل متعددة، فإن في ترتيبها الترتيب الصحيح ما يدل على فقه وعلم صاحبها. وأن مَن لم يُحسن ترتيب الأولويات، ويقدم مصالح الآخرة على حظوظ الدنيا فإنه إلى الخسارة ذاهب. وبما يفيد أن العلم الحقيقي هو الذي يَظهر على صاحبه في التطبيق والممارسة العملية.

مما يفيد أن نعم الله تعالى على العبد تحمل جانب التفضل بها، وجانب الابتلاء والاختبار، فالأموال والأولاد نعمة عظيمة، وفي نفس الوقت هي اختبار للإنسان، ماذا يصنع بها؟ ثم يرشد سبحانه وتعالى عباده إلى ما يحفزهم ويدفعهم لاستخدامها في طاعته، وذلك ببيان عظيم ما عنده عَزَّ وجل، بأنه هو الأخير والأفضل من ذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ فإن ربكم عنده لمن اتقى فتنة الدنيا ثواباً عظيماً من كل وجه. فإنه لا يُقاس بنعمة المال والولد، فهو أعظم منها.

واشتمل سياق البيان للمثوبة من وجهين: الأول باعتبار موقعها من نص الآية الكريمة، فيكون الأجر متعلق بمن اتقى الله تعالى في المال والأولاد، والوجه الثاني: أنها جاءت عامة، لتفيد أن الله تعالى عنده أجر عظيم لكل من أطاعه، لتستوعب جميع أنواع الطاعات، وفي كل أمر وشأن من شريعة الله تعالى وعطائه الذي لا يستطيع أن يحده أحد بحدود التعدد والذكر والوصف. كما اشتمل الوصف على معنى العظمة والتبجيل ﴿ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ بما يدل على الكثرة، وعلى عظمته في نوعه وكثرته، وقوة عظمته على النفس في محبتها وفرحها به، وعظمته في كل جانب ووجه، وإذا كان هذا الأجر العظيم من الله تعالى المتصف بالعظمة والكرم، فإنه يكون مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر. وفي هذا توجيه رباني للمجتمع المسلم بما يربي فيهم حُسن التعامل مع الأموال والأولاد، مما ينعطف أثره على العلاقات الاجتماعية.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى الأمر بالتقوى التي هي أساس الالتزام، وأساس الانقياد لله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فعليكم أيها المؤمنون بأن تتقوى الله تعالى، وتبذلوا في ذلك وسعكم وقدرتكم. وعليكم كذلك بالسمع والطاعة لربكم تبارك وتعالى، وأن تجتهدوا في الإنفاق لله تعالى في أوجه الخير، فإن ذلك خير لأنفسكم من الإمساك، فإن الشح هو الطمع والبخل والانقباض النفسي الذي يؤدي إلى الانقباض العملي عن فعل الخير.

وقد ابتدأ البيان الكريم بالأمر بالتقوى. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيجب عليكم أن تخافوا عقاب الله ربكم عَزَّ وجل، وأن تطيعوه فيما دعاكم إليه. والتقوى تُحقق في المتقي مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

وقد ورد التوجيه بالتقوى بصيغة فعل الأمر ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ الذي يعني الوجوب. وليفيد أنه يجب عليكم أن تخافوا عقاب الله ربكم عَزَّ وجل، وأن تطيعوه فيما دعاكم إليه، وبينه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن التقوى ركيزة الأعمال، إذ تؤدي إلى ما بعدها من الامتثال بالطاعة. وتتضمن التقوى أمرين مهمين: أحدهما: الخوف من عقابه سبحانه وتعالى، والثاني هو: الأمل والرجاء في رحمته وثوابه. وفي هذا تأكيد لأهمية التقوى ومنزلتها، وأثرها في الاتباع. وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ولما أن التقوى تحتاج إلى مجاهدة نفسية، مع التدرج في متابعتها، مع تباين النفوس في الاستطاعة، فقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى بذل الجهد، كل بحسب استطاعته، فقال تعالى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ بحسب وسعكم، وما بلغ إليه جهدكم والله تعالى عالم بقدرات كل عبد من عباده، أمام حاجاته والمغريات التي تواجهه. وفي هذا من الفوائد: مراعاة المنهج الإسلامي للفروق الفردية، ولتقلب حالات واستطاعة الإنسان. ولذلك يتفاوت الناس في العطاء، وفي الامتناع، وفي كل شأن. والله تعالى مُطَّلِع على قدرات العباد. مما يفيد أيضاً ألا يحقر أحدٌ أحداً، ولا يزدري غيره، فاستطاعة العباد متفاوتة. وكذلك من فوائد هذا البيان الكريم أهمية مراعاة الفروق الفردية عند التكليف بالأعمال في مجال المهن والأعمال، وإدارة الناس. فإذا كان الله تعالى يراعي تفاوت عباده فإن من واجب العباد مراعاة ذلك بينهم.

ثم يوجه تبارك وتعالى العباد إلى السمع والطاعة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ فاسمعوا ما تؤمرون به من ربكم، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم، وأعطوا ذلك اهتمامكم بالطاعة والامتثال، فإذا سمعتم فأطيعوا وامتثلوا لما سمعتم. ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى الامتثال بالنفقة التي أمر الله تعالى بها. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ والإنفاق هو بذل وصرف المال والمعروف، وأنواع الخير في أبواب الخير المختلفة. وقد ورد الإنفاق هنا بصيغة الأمر لإفادة الملازمة والمتابعة للإنفاق. وسواء كانت من باب الصدقة المطلقة، أو من باب زكاة الأموال، أو صنائع المعروف، أو ما كان على النفس والأهل، ومن تجب عليهم النفقة. فقد وردت عامة، ومطلقة، لتشميل جميع أوجه الإنفاق ودرجاته. وهذا من دقائق التوجيه الكريم الذي استوعب بدلالة الكلمة الواحدة جميع المقاصد.

ثم ورد التدرج والانتقال إلى الحث والتشجيع من الله تعالى بأسلوب الترغيب والتحفيز، الذي يدفع المؤمن إلى النفقة من غير تردد، بحسب استطاعته. فقال تعالى ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡ ﴾ فعليكم بالإنفاق في أوجه الخير، لأن عوائد ذلك الإنفاق راجع إليكم أنتم، فإنه الأخير والأفضل من الإمساك، وكذلك الأفضل والأخير لكم في عوائده التي يمنحها الله تعالى لكم بفضله وكرمه عَزَّ في علاه. أي: فإن خير النفقة عائد عليكم. بما يفيد أن العوائد العظيمة التي هي خير مما أنفقتم وبذلتم عائدة لكم من ربكم الغني الْمُغْنِي. ومن دقائق التوجيه الكريم أن البيان العظيم لم يحدد مقدار ذلك الخير، الذي نوه عنه بأسلوب المفاضلة العظيمة ﴿ خَيۡرًا ﴾ بما يزيد من الترغيب والتشجيع. مع بيان التعظيم، من حيث الكثرة، ومن حيث النوع، ومن حيث الدنيا والآخرة. لأن خير الله تعالى عظيم، وفضله لا يحده ولا يحصيه أحد.

ثم يزداد التشجيع والترغيب في ذلك ببيان المفاضلة بين الشحيح من الناس وبين الباذل المنفق من العباد. فقال تعالى ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فإن مَن يكون في وقاية وبُعد عن الشح، فإنه من المفلحين الذين فازوا وظفروا بمبتغاهم من خير الدنيا والآخرة. والشح هو الطمع والبخل. وقد أفادت دلالة الشح أنه الانقباض النفسي الذي يؤدي إلى الانقباض العملي عن فعل الخير، نتيجة انقباض النفس على ما تحبه مما تمتلكه، إلى درجة إيثار النفس على الغير من المحتاجين له، وإيثار البقاء والتخزين له على بذله في الخير. الأمر الذي يؤدي إلى الانقباض العملي عن فعل الخير. وقد أفادت دلالة ﴿ وَمَن يُوقَ ﴾ الوقاية بالبعد والنأي بالنفس عن الشح. مما يتطلب لذلك مجاهدة النفس، ومقاومتها، لتتوقى شر الشح.

وقد وردت ﴿ يُوقَ ﴾ بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله، لتستوعب جميع الأسباب الفاعلة للشح. وذلك لتنوعها وكثرتها. كالأمل عند الإنسان بما عنده ليحصل به على الغنى، بالمكاسب والمرابح، وكالأمل فيما عنده بما يُبعده عن الفقر واتقائه. فهذان سببان، وهناك أسباب أخرى عديدة. وهي كثيرة ومتفاوتة بين الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن أي الصدقة أعظم أجراً. فقال عليه الصلاة والسلام (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى)[1] فهما عاملان قويان في التأثير على النفس. فتحتاج إلى قوة إيمانية يتغلَّب بها المؤمن بشدة وقوة على هذا الفاعل المؤثر. كما كان حال الأنصار رضي الله عنهم في إيثار المهاجري على أنفسهم ولو كانت بهم حاجة.

ثم أخبر جَلَّ شأنه بأن من يُوقى شح نفسه فإنه من أهل الفلاح. فقال سبحانه وتعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: الفائزون بمرادهم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. فالمفلح من الناس هو الناجي من العذاب، والفائز بالجنة. فحثهم تبارك وتعالى على السخاء بما يحققه من الفلاح. لأن السخاء هو من ثمار الإيمان والطاعة لله تعالى.

وهذا البيان الكريم من الله تعالى هو قاعدة وقوة لمعالجة النفس عندما يغلب عليها الشح والطمع، فيعالج شأنه بقوله تعالى ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ويعظ بها غيره عندما يرى منه الشح مع القدرة، فيقول له بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ لتكون قاعدة فاعلة في تربية النفس على البذل والسخاء في العطاء. كما أن في قوله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ دعم وتقوية للنفس، بما وصف الله تعالى به أصحاب الباذلين بالفوز بخير الدنيا والآخرة. مما يبين

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٤١٩) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (١٠٣٢)

أن الله تعالى بكرمه يُعطي ويكرم بأكثر مما يكون من العباد. وخير مثال عملي هو ما اتصف به الصحابة جميعاً رضي الله عنهم من البذل بسخاء في أوجه الخير، كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم. وكذلك ما كان من الأنصار رضي الله عنهم من الإيثار والمحبة لإخوانهم المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين. اللهم اجعلنا والمسلمين أجمعين معهم بمنك وكرمك يا رب العالمين.

ثم يزداد التدرج في الحث على النفقة، والترغيب فيها بمكافأة الله تعالى للمنفقين من المؤمنين. فقال تعالى ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ فإن تنفقوا لله تعالى عن طيب نفس، فإن ربكم يكافئكم بمضاعفة ثواب وأجر ما أنفقتم، ويغفر لكم. وبهذا يخبر الله تبارك وتعالى بعظيم الأجر لمن يتصدق، ويقرض لله تعالى القرض الحسن. فقد جعل الله عَزَّ وجل الإنفاق في أوجه الخير قرضاً له سبحانه وتعالى، لأنه المكافئ له ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ ﴾ فنسب الإقراض من عباده إليه تبارك وتعالى. فالذي يُقْرِض هو العبد، والمكافئ لهذا القرض هو الرب تبارك وتعالى. وهذا الإنفاق من العبد لغيره هو على صيغة الإقراض الْمُعاد، ولكن الإعادة هنا مختلفة عن إعادة البشر لبعضهم البعض، لأنها إعادة من مالك الملك. فالمفاضلة فيها تعني بأنها غاية العظمة، بل ومربحة بلا حدود للمقرض.

واشترط لهذا الأمر صفة الإحسان ﴿ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ والقرض الحسن هو الذي يكون عن طيب نفس. ودلالة ﴿ حَسَنٗا ﴾ تجمع كل جوامع الْحُسْن في النية والإخلاص، وفي المقدار والنوع، وكذا طيبة النفس الممتلئة بالإيمان، والأدب والأخلاق في الإنفاق. ومنافية لكل ما هو ضد الإحسان وصفاته ودلالاته. مما يبين عظمة الأسلوب في القرآن، وعظمة الآداب والأخلاق. ويشمل حتى الإحسان للآخرين بأنواع الإحسان الذي لا حدود لمقداره، ولا لأنواعه ومفرداته، وحالاته. فإن الله تعالى يحب المحسنين.

ثم يبين الله تعالى مقدار المكافأة للمنفق ﴿ يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ ﴾ فحدد المقابل بالمضاعفة، ولكن دون أن يحدد عدد تلك الأضعاف. بل وردت مطلقة من غير تحديد، لإفادة المبالغة العظيمة في أضعافها. فليس ضعفاً واحداً، ولا بضعفين ولا ثلاثة أضعاف، بل أضعافاً كثيرة، ومتكررة، وغير محددة، لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى. وزيادة على تلك الأضعاف التي وردت بدلالة المبالغة، فإنه كذلك للمقرض ما هو أعظم ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ أي: يمحو ويزيل ربكم عنكم ما كان من الذنوب التي حصلت منكم، فلا يعاقبكم عليها، وذلك بمحوها وسترها.

ويُستفاد من ذلك أهمية الكرم وسخاء النفس في العطاء، وأن يُحسن المقرض مع مَن أقرضه من حيث المقدار، ومن حيث الوقت، والصبر، والإحسان، وكل ما يتعلق بأخلاق الإقراض الحسن. لأنه منهج الله تعالى

الكريم الرحمن الرحيم. ويُفيد هذا في بيان أهمية أن يتناول الداعية والمربي والناصح الدلالات القرآنية الكريمة، التي تدفع الإنسان للخير وتُبعده عن الشر، وتربي فيه خصال الخير، ومكارم الأخلاق. والحمد لله رب العالمين. اللهم إنا نسألك أن تجعلنا ممن ينفق ويقرض القرض الحسن، على الوجه الذي تحبه ويرضيك يا رب العالمين.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ما سبق من إثابته لعباده بدلالة أسمائه وصفاته العظيمة، فيقول جَلَّ شأنه ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ إن ربكم شكور حليم سبحانه وتعالى، وفي هذا بشارة عظيمة للمؤمنين، ومحفز لهم على الإنفاق في أوجه الخير المختلفة. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: إن الله ربكم سبحانه وتعالى يشكر لكم ما كان منكم من الإنفاق في أوجه الخير، فيضاعفه لكم. لأن من صفات ربكم الجليلة العظيمة أنه ﴿شَكُورٌ﴾ أي: كثير الشكر للطائعين، بأن يعطيهم أكثر وأعظم مما يستحقون ويرجون، وذلك لعظيم فضله وإنعامه. وشكره تجاه ما أنعم به عليهم من الإنعام، بأن أطاعوه وامتثلوا أمره وشرعه. بما يفيد الترغيب والحث لعباده على النفقة في أوجه الخير المختلفة. ودلالة ﴿شَكُورٌ﴾ أنها من صيغ المبالغة، التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله.

كما أن من صفات ربكم الجليلة أنه ﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل عباده بما يستحقون من العقاب، أو العذاب، بل يحلم عليهم، ليتمكنوا من التوبة والاستغفار. إلا من عاند واستكبر. فهو حليم غير عجول سبحانه وتعالى في تقرير العقوبة وإنزالها. وهذا من عظيم كرمه وإحسانه على عباده عَزَّ وجل. ودلالة ﴿حَلِيمٌ﴾ أنها من صيغ المبالغة، التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إظهار المزيد من أسمائه الحسنى سبحانه وتعالى وصفاته العليا. فيقول جَلَّ شأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فإن ربكم عَزَّ وجل عالم بكل شيء، فلا يخفى عليه ما يخفى على عباده وخلقه، وأن له كمال العزة، والحكيم في أفعاله وخلقه وتصريفه. فبدأ عَزَّ وجل بتقرير كمال علمه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فإن ربكم هو الذي لا يغيب ولا يخفى عنه شيء أبداً. فهو عالم بأحوال خلقه، ما ظهر وما خفي وبطن منها. ومن ذلك أنه عالم سبحانه وتعالى بسرائركم ودواخلكم، مما تسرون به، وتكتمونه، وأيضاً ما تظهرونه من أعمالكم إن كانت صالحة أو باطلة. وبما يفيد كمال العلم مع دقة الإحصاء الذي يعقبه المحاسبة، والجزاء. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقد تضمن قوله عَزَّ وجل ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أمرين: أحدهما ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ أي: العَالِم بما يتستر به خلقه، مما يتخفون به، وكذلك ما غاب عن خلقه من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، وما غاب عن بعضهم البعض؛ ومن ذلك ما تخفيه الضمائر والنفوس، وما تُكِنُّه الصدور. فلا يغيب ولا يستتر عليه شيء

من الخلق أبداً سبحانه وتعالى. فلا ظُلْمَةٌ تمنع، ولا سِتْرٌ يحول دون علم الله تعالى، فلا شيء يحول دون علمه جَلَّ شأنه. ثم ذكر عَزَّ وجل: علمه بالظواهر ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ المتضمنة في دلالتها ما يكون منهم، مما يُظهرونه ويعلنونه من الخير أو الباطل، وكذلك أن عِلْم ربكم متضمن لِمَا يشاهده الخلق ويعاينونه بحواسهم المختلفة. فأعادهم الله تعالى إلى ما يُوجب الخوف منه، ومراقبته في السر والعلن. وأنه عالم كذلك بما يبذلونه من الخير في السر أو كان في العلن. مما يُوجب التطمين والاطمئنان بأن ربكم عليم بجميع أحوالكم ونفقاتكم.

وكذلك من فوائد العلم بدلالة ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ما يربط ويُظهر ويبين العلاقة الوطيدة والمتلازمة بين الإيمان بالغيب والإيمان بالشهادة. فمن يؤمن بالشواهد من خلق الله تعالى وتدبيره فإنه يلزمه الإيمان بالغيب الذي دلت عليه شواهد قدرة الله تعالى، كإنبات الأرض بعد موتها، وحركة الكون وثبوته، وجميع ما فيه من المخلوقات المتحركة والثابتة. بل قدم سبحانه وتعالى عِلْم الغيب على علم الشهادة، لإظهار أهميته لِلْمُخَاطَب.

وفي الإيمان بذلك ما يغرس التقوى في المؤمن، ومراقبة الله تعالى في النفس. فتكون حياته بين الخوف والرجاء، وهما الأمران الجالبان للسعادة، والضابطان لسلوك الإنسان في كل وقت وحين. والطريق للهداية والاستقامة، ثم إلى جنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض. ونسأل الله تعالى الجنة لنا ولجميع المسلمين بفضله ورحمته وتوفيقه يا رب العالمين.

وكذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى أنه ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فإن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، وعلى عباده المؤمنين فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. وأما الصفة الثانية: فهو ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما يفيد ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم

وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه ولأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة التغابن. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.